

مصرع الصحافة العظيمة

في ظل النظم الطاغية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

الصحافة ضربتها القاضية ، وأصبحت شعباً فقط لما كانت عليه من قبل ، وجردت من أعظم وأسمى مظاهرها : حرية التفكير والكتابة ؛ ولم تبق سوى أداة ذليلة خائنة للقوى الطاغية التي تخنقها وتسيرها كيفما شاءت

وقد كانت الصحافة الحرة وما زالت مظهرًا من أهم مظاهر الديمقراطية والنظم الحرة ؛ وقد أصيبت الديمقراطية والنظم الحرة في عصرنا برجمة خطيرة ، وأصيبت معها كل مظاهرها الحقيقية ومنها الصحافة ؛ فحينما نكبت الديمقراطية : في روسيا السوفيتية ، وفي تركيا الكمالية ، وفي إيطاليا الفاشستية ، وأخيرًا في ألمانيا المحتلة ، تلقى الصحافة أشد محنة عرفتها ، وتسحقها النظم الطاغية التي رأت أن تتخذها مع باقي القوى العامة ، أداة لتحقيق برنامجها وتوطيد سلطانها . وفي هذه البلاد التي يسود فيها الطغيان المطلق ، لم يبق رأى حر يستطيع أن يتنفس ، ولا رأى عام يستطيع أن يعبر عن شعوره أو يتحدث أثره المشروع في الحياة العامة ؛ ولا تستطيع أن تخرج من الصحافة إلا بصورة واحدة مكررة هي إرادة الطغاة ومزاعم الطغاة ، تفرض على ملايين من الناس لا حق لهم في مناقشة أو تذمر ، ولا يسمح لهم بغير التأييد الأعمى

وترغم هذه الحكومات الطاغية دائماً بأنها تحظى بتأييد الأمة المطلق ، وتحاول دائماً أن تتخذ من اجماع الصحافة المصفدة المسيرة دليلاً على هذا التأييد ؛ ولكن كيف يعرف رأى أمة لا يسمح لها بإبداء الرأى ، وكيف يوصف شعور أمة نحو الطغاة ، وهي ممنوعة بالقوة القاهرة عن إبداء هذا الشعور ؟ إن حكومات الطغيان تسن من القوانين الاستثنائية ما يكفل إخماد كل صوت وكل رأى معارض ، ثم هي لا تقف عند هذه القوانين ، بل تلجأ في أحيان كثيرة إلى إجراءات الهوى ، فتنزل بأولئك الذين يجرؤون على معارضتها أشنع العقوبات من قبض واعتقال ومصادرة ، بل ومن إعدام ، كل ذلك دون قانون ودون تحقيق أو محاكمة ؛ وليس من المبالغة أن نقول إن الحياة البشرية في هذه الأمم ، أضحت كالحريريات العامة ، دون ضمان وطمأنينة ؛ وما زلنا نذكر كيف أن مئات من الألمان أزهقوا في ٣٠ يونيو الماضى بيد هتلر ومعاونيه لرب في تأييدهم للنظام القائم ؛ وقد أهدر دهم جميعاً

لا يستطيع مؤرخ أن يتجاهل الدور العظيم الذى أدته صحافة في تطورات العالم السياسية والثقافية منذ أوائل القرن الماضى ؛ ولا يستطيع مؤرخ الحرب الكبرى أن ينسى أن صحافة كانت الى جانب الجيوش والأساطيل أداة من أدوات نصر ؛ وليس مبالغة أن توصف الصحافة الحديثة بأنها فى الدولة ااطة رابعة الى جانب السلطات الدستورية الثلاث : التشريعية ، التنفيذية ، والقضائية ؛ وفي ظروف معينة تبدو الصحافة أولى سلطات وأهمها فى الدولة أو المجتمع : تنشئ حكومات وتسقط حكومات ، وتحشد الرأى العام لتحقيق برنامج معين أو فكرة معينة ، وقوتها فى ذلك لا تتأد لها قوة ، ونفوذها لا يجاريه نفوذ . هذه حقائق بديهية لا تقتضى جدلاً أو مناقشة . وما زالت لصحافة فى الأمم العظيمة الحرة هي صاحبة المقام الأول فى قيادة رأى العام ، وفي توجيه القوى السياسية والاجتماعية . وفي عصرنا قطعت الصحافة فى سبيل التقدم العلمى والفنى مراحل مدهشة ؛ ولكن الصحافة أصيبت فى عصرنا أيضاً بأقسى محنة عرفتها فى تاريخها القصير المدى . ففى عدة من الأمم العظيمة لقيت

إنها كانت رقدة أهل الكهف

ولم تكن لي يومئذ زوجة ، فلما عدت إلى البيت لا حظت أمي أني أشكو وجعاً في ظهري وتكسيراً في عظامي ، فسألتني : « أين كنت ؟ »

قلت : « في مركز البوليس بالمرج »

فسألتني : « مركز البوليس ؟ لماذا ؟ ماذا صنعت ؟ »

قلت : « شتمت النسيم ! »

قالت : « أكنت تشتم النسيم أم تضرب علقه ؟ »

وظلت إلى أن ماتت ، وهي في شك من هذا الأمر

إبراهيم عبد القادر المازني

لأن « الزعيم » أراد إعدامهم وكفى

تصفد الحرية الفكرية بهذه الاغلال حينما يقوم الطغنيان (الدكتاتورية) . وقد كان البلاشفة أول من أخضع الصحافة لهذا النظام الحديدى ، فلقبت في ظل العهد الجديد ما لم تعرفه في ظل القيصرية من القيود والاغلال المرهقة ، ولم تلبث أن استحالَت الى أداة رسمية صماء لا رأى لها ولا إرادة ، وخفت الرأى العام الروسى منذ ثمانية عشر عاماً فلا يعرف العالم الخارجى عنه شيئاً ؛ وحذت الفاشستية حذو البلشفية في استعباد الصحافة وإخماد هذا التنفس الذى قد يثير حولها الصعاب إذا ترك طليقاً ؛ ثم اقتنى الكالليون هذه الخطة في تركيا ، وفرضوا على الرأى العام أغلالاً لم يمرنها في العصر الحيدى ؛ ولما قام الطغنيان الهتلري في ألمانيا ، كانت أولى وسائله لتوطيد سلطانه أن يسحق الرأى العام الألمانى ، وذلك بسحق الصحافة متنفسه الطبيعى . وقد ذهب الهتلريون في ذلك الى حدود لم تعرفها أشد عصور الطغنيان

كان في ألمانيا ، قبل أن يغمرها طغنيان الوطنية الاشتراكية ، صحافة عظيمة زاهرة تمد في مقدمة أعظم صحافات العالم ؛ وكان لها نفوذها القوى في توجيه الرأى العام وفي التعبير عن رغباته وميوله ، شأنها في كل الأمم العظيمة . ولكن زعماء النظام الجديد أدركوا قوة الصحافة وخطرها على نظم الطغنيان ، فسحقوها بيد من حديد ووضعوها لثأرهما استثنائياً خاصاً يسلبها كل حرية وكل استقلال في الرأى ، وجعلوا منها صناعة رسمية ، ومن محرريها المسئولين عمالاً للحكومة ؛ وأنشأوا وزارة خاصة للدعاية ، تتركز فيها جميع عناصر الوعى والرأى والقول في ألمانيا كلها ؛ ولم يحجموا بذلك عن أن يمزقوا بيدهم آخر الأقمعة التى تستتر بها الدكتاتورية ، وأن يمتزقوا جهاراً بأنهم هم الذين يوجهون الصحافة ويذوقونها بكل عناصر القول والرأى ؛ ولم يصفد الهتلريون الصحافة السياسية فقط ، ولكنهم صفدوا كل أنواع التفكير والكتابة ؛ والأدب والشعر ، والفنون والعلوم وكل ألوان الثقافة ، وجعلوا منها جميعاً أداة لبث مبادئهم وتمكين سلطانهم من أعناق الأمة التى يدعون الوصاية عليها . ومنذ أيام قلائل أصدرت الحكومة الهتلرية قانوناً استثنائياً جديداً يشدد أغلال الصحافة

الألمانية ويقضى على آخر المظاهر التى بقيت لها . وقد وصف القانون الجديد بأن القصد منه « صون استقلال الصحافة » والواقع أنه يقضى على آخر ما بقى لها من لمحات الاستقلال ، والمقصود به بنوع خاص أن يقضى على الصحافة التى تمثل مصالح المهن والطوائف والجماعات العامة ، وعلى الصحافة الكاثوليكية التى مازالت قوية في جنوب ألمانيا وغربها^(١) . وهو ينص على حرمان كل شخص لا ينتمى الى الجنس الآرى من العمل في الصحافة وكل متعلقاتها ؛ وإذا أريد تغيير ناشر الصحيفة أو محررها وجبت موافقة السلطات ؛ وإذا رؤى في أى جهة من الجهات أنه يوجد من الصحف ما يزيد عن حاجتها عطل منها ما كان زائداً عن الحاجة ، وقد نص أيضاً على تعطيل جميع الصحف التى تعنى بنشر الحوادث الجنائية والاجتماعية ووصفت في الرسوم بأنها « صحافة الفضائح » ، والخلاصة أن القانون الجديد لا يفسح مجال الحياة والظهور لغير الصحافة النازية الحكومية

ولقد كانت هذه الضربة الجديدة لقتل صحافة عظيمة مثار الاشمئزاز حينما تقدر حرية الفكر والرأى ، واستقبلتها الصحافة الانكليزية بماصمة من السخط ؛ وكتبت « التيمس » مقالاً رناناً قالت فيه : « إن خضوع الشعب الألمانى أمام تقييد حرياته ومورد أخباره يعتبر حادثاً مزيجاً جداً . وكيف يستطيع الشعب الألمانى بعد ذلك أن يقف على الظروف الحقيقية للسياسة الدولية من هذه المصادر التى تقدم له الآن . وكيف يفهم الألمان عبارة « الاعتزال السياسى » في أوروبا ، وهى عبارة يرددها زعمائهم وهى فى الغالب من صنمهم وتديبرهم ؟ وهل يفهمون الظروف الحقيقية التى قتل فيها الدكتور دولفوس المستشار النمساوى ؟ والتى دبرت فيها مذبحه ٣٠ يونيو في ألمانيا ؟ وما يلقاه اليهود والسجناء السياسيون ، وما يكون لهذه الأمور من أثر في الرأى العام الأوروبي ؟ » وقالت الجارديان : « ان الصحافة التى كانت في ألمانيا من أعظم الحرف وأرقها ، تنحدر الآن الى الحضيض . وليست الجرائد « النازية » الحالية التى حلت محل الصحف التى كانت من قبل من أمهات الصحف العالمية ، سوى وريقات لبث

(١) يلاحظ أن معظم الصحف الألمانية الكبرى تطبعها النزعة الكاثوليكية ؛ وهذه الصحافة من التى مازالت تضطلع بالمركبة الثقافية والروحية ضد النظام الاشتراكي الوطنى

ومثل هذه الظاهر لا توجد في ظل الاشتراكية الوطنية ؛
والمبادئ الحرة لم تسمح بتوحيد كتلة الشعب ، والاشتراكية الوطنية
تريد الشعب كتلة واحدة ، وكلمة واحدة . وقد كانت الصحافة
في عهد الحريات القديمة تستمد أعظم قواها ونفوذها من الانتماء
إلى الأحزاب ، ومن إثارة المناقشات السياسية ؛ فلما أزيل نظام
الأحزاب أو زال منه تلقاء نفسه انحدرت الصحافة الحرة إلى
مثل هذا المصير ، وفقدت أهميتها الحزبية والسياسية ؛
والاشتراكية الوطنية لا تقيم وزناً للجدل السياسي ، وفي رأيها
أنه متى زالت البواعث الموجبة لهذا الجدل ، وهو الخلاف الحزبي ،
فإن الصحافة تقدم أداة متباعدة في عملها ومظاهرها . والاشتراكية
الوطنية لا تعتمد على الصحافة كأداة للدعوة ، ولكنها تعتمد في
ذلك على الإذاعة اللاسلكية ؛ وهي عمادها في قيادة الشعب
وإرشاده . وأما الصحف فهمتها أن تنقل للناس ما يسمعون به بواسطة
« الراديو » لكي يمودوا فيقرأوه ويتدبروه . وأخيراً ترى
الاشتراكية الوطنية أن الصحافة من الأنظمة القومية ، فيجب
أن تكون حرفة رسمية تشرف عليها الدولة ، ويجب ألا يشغل
بها سوى الآدين ، فلا يسمح لليهود أن يشتغلوا بها أو يساهموا
في امتلاكها (وهذا ما يقرره قانون الصحافة الهنلري) . وكما أن
الصحافة السياسية تنقل كل مواد الكتابة والتعليق من المكاتب
السياسية بوزارة الدعاية ، فكذلك تشرف على توجيه الصحافة
العلمية والأدبية والفنية « غرفة للثقافة » وعلى توجيه الصحافة
الاقتصادية والمالية « غرفة الدعاية الاقتصادية » ، وهكذا يسير
التفكير الألماني كله طبقاً لخطة حزبية موضوعة تقرر له المبادئ
والمواد من وراء ستار وتلقنها إليه تحت سلطان القوة والوعيد

وهل نحن في حاجة لأن ندحض هذه النظريات والآراء
الرجعية الطاغية ؟ إن الاشتراكية الوطنية تعترف بأنها تقتل
الصحافة لأنها لا تطبق النظم الحرة ، وفي ذلك ما يكفي للحكم على
تدليلها ووسائلها . ولقد كانت حرية التفكير في جميع العصور
والأمم من خواص الأنظمة والحضارات العظيمة . ولكن ما هي
الاشتراكية الوطنية الألمانية في الواقع ؟ هي مزيج من الآراء
والنظريات القومية والجنسية المفرقة ، التي تحمل في معظمها

الدعاية الخاصة ؛ ولم يبق أثر لحرية الفكر والجدل والنقشة .
وكان من مفاخر هذه الحرفة الكريمة في ألمانيا أن عدداً عظيماً
من كتابها وصحافها آثروا الخراب والنفي والسجن على هذا
الانحطاط الشنيع « ثم تتساءل الجارديان : « فهل بقي في الشعب
الألماني روح حي يأسف على ضياع حرياته الفكرية والقلمية أو يثور
على تلك التدابير التي تتخذ لسحق هذه الحريات بصفة نهائية ؟ »
والواقع أن الصحافة الألمانية سقطت من عداد الصحافات
العظيمة منذ تولى الهنلريون الحكم ؛ ولم تفقد كل قوتها ونفوذها
السياسي والاجتماعي فقط ، ولكنها فقدت كل خواصها ومميزاتها
الثقافية المتممة التي كانت من قبل تغر التفكير الألماني ؛ وأخذت
الصحف الألمانية العظيمة تحتفي من الميدان تباعاً بعد أن فقدت
مركزها وخاصة قرائها ، وامتدت النكبة إلى الصحافة الأدبية
والفنية والعلمية ، فأخذت تنحدر إلى نفس المصير المحزن ؛
وتسيرها نفس الدعاية السياسية والثقافية التي غمرت ألمانيا ؛
وغدت الصحف الألمانية العلمية التي كانت من قبل أسفاراً جليلة
تحمل على الإعجاب والاحترام ، أدوات للدعاية الهنلرية ، تحدثك
باستمرار عن نظريات « الزعيم » في خواص الجنس الآري ،
وانحطاط الأجناس السامية ، وتفوق السلالة الألمانية ، وأصول
الثقافة الجرمانية القديمة ، وغيرها من المبادئ والنظريات الجنسية
التمصبية التي أصبحت ظاهرة الحياة العامة في ألمانيا ؛ وأضحى
أصدقاء الثقافة الألمانية الحرة في حيرة من هذا الخلط المحزن بين
الحقائق والغايات العلمية ، وبين النظريات والدعائيات الحزبية التي
جعلتها وزارة الدعاية الهنلرية فوق كل شيء في حياة الشعب الألماني
وتشعر الدوائر العلمية والأدبية والطبقات المفكرة الألمانية
عامة بمخطر هذا التيار الجارف على مستقبل التفكير والآداب
الألمانية ، ولكنها لا تستطيع أن تفعل شيئاً لمقاومة هذا الخطر
لأنها توضع تحت نفس النظم الجديدة التي جعلت من الصحافة
ووسائل الثقافة الفنية كالسرح والسينما والموسيقى والراديو ،
أدوات للدعوة الحزبية المحضة . ويشعر الزعماء الهنلريون أنفسهم
بفداحة الأثر الذي أحدثه هذا الاستعباد المطلق للتفكير الألماني ،
ويحاولون تبريره بمختلف النظريات والمبادئ . وملخص نظريتهم
في ذلك هو أن الصحافة من مظاهر الأنظمة الحرة وخواصها ،